

دراسة آليات الإقناع والحجاج في رسائل الإمام علي (ع) في نهج البلاغة (الرسالة الخامسة والأربعون نموذجاً)

مهدي عابدي*

الملخص

الإقناع كان وما زال من أفضل الوسائل تأثيراً على الآخرين، وهو آلة بيانية فاعلة لتحقيق التأثير في المتلقى، والمحور الرئيس في إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين المتكلم والمتلقى عبر وسائل الإقناع والإثارة، والحجاج ميزة من ميزات هذا التخاطب (الشفوية والكتابية). هذه الدراسة تكشف عن جانب بسيط من العملية الإقناعية في كلام خطيب كان له الحظ الأوفر في هذه الصناعة، لأن رسائل الإمام علي (عليه السلام) مادة غزيرة بشكلها ومضمونها وتكامل مجموعة العلاقات فيها، وتنظم النص ككل منسجم متلائم. قد تناولت هذه الدراسة موضوع الحجاج والإقناع في رسالة الإمام علي (ع) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري (كعامله الحكومي) وتحاول أن تقوم بدراسة كيفية استخدام آليات الإقناع ووسائله في بناء الرسالة بمنهج وصفي - تحليلي. ومن نتائج هذه الدراسة أنها تهدف إلى إيجاد نظرة عميقة لمتلقى رسالة الإمام وتقديمه رؤية طرية؛ هذه الرسالة تقوم على الطابع الحجاجي والإمام يحاول من خلالها تنفيذ أغراضه عبر الإقناع والتأثير وكلامه البليغ مزوداً بأساليب متنوّعة وكذلك يتحدث المرسل عن نفسه تارةً يمتدحها وأخرى يؤججها، وذلك وفق الإستراتيجية التضامنية، وتعدّ إحدى استراتيجيات التخاطب أن يتضامن المتكلم مع المخاطب في حالة التنازل عن سلطته في التخاطب ويعتمد المرسل في صورته التشبيهية على الهيئات المختلفة، ما يجعل المتلقى في رقابة دائمة مع النص من أجل اكتشاف الحيوط المشتركة بين هذه الصور.

الكلمات الدليلية: الإقناع، الإمام علي (ع)، الحجاج، عثمان بن حنيف، رسالة ٤٥ نهج البلاغة.

* أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان، أصفهان، إيران
mehdiabedi1359@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٨/٩/٢٧ ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٦/١٢ ش

المقدّمة

يشتمل النشاط البشرى على مستوى محدّد من الإقناع، وهذا المستوى مختلفٌ نظراً للزّمان والمكان المعيش، ففي العصور الإسلامية الأولى وبعدها بعدة قرون، كانت الخطابة والعملية الإقناعية المنطوية فيها، الشرط الأساس لاستمرار الحياة وحثّ الجنود وسدّ الثغور؛ لذلك تتأتّى هذه الأهميّة البالغة بالكلام وصقله وتعلّم ما فيه من عناصر الإجابة. فقد حلّ العلماء نواته ولكنهم لم يفهموا أنّ الإقناع ليس أداة نستخدمها اختيارياً، بل إنّها أداة لا بدّ لنا من استخدامها من أجل البقاء، الإقناع جوهر الحياة وهو الوسيلة لإقناع أنفسنا ومن حولنا. وإنّ كلام أمير المؤمنين (ع) منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين وكتاب "نهج البلاغة" وخاصّة رسائله، من أعرق النصوص العربية وأفصحها، أمّا بالنسبة لآلية الإقناع، فإنّ الإمام في رسائله انبنى بناءً تبليغياً مؤسساً وفقاً لمقدّمات خطابية تواصلية.

منهج البحث

سلك الباحث في بحثه المنهج الوصفى - التحليلي، لتحليل وسائل الإقناع وآلياته في الرّسالة الآنفه للذّكر وفقاً لنظريات بعض اللّسانيين الجدد.

أسئلة البحث

- ما هي الأساليب الحجاجية التي اتّخذها الإمام في رسالته إلى عثمان بن حنيف؟
- إلى أي مدى كان الإمام (كمرسل) ناجحاً في العملية التواصلية مع عثمان بن حنيف كعامله الحكومي (المتلقّي)؟
- لماذا أكثر الإمام من استخدام الصّور الفنيّة والتشبيهات والاستعارات في هذه الرّسالة؟

خلفية البحث

تسبق هذه الدّراسة المقتضية، دراساتٌ عديدة في مجال الإقناع وأساليبه، أهمّها هذه

الدراسات:

- حمدان، خالد حسين (٢٠٠٥م)، "الإقناع أسسه وأهدافه فى ضوء أسلوب القرآن الكريم"، دراسة وصفية تحليلية؛ يستهدف هذا البحث العقل الإنسانى باعتباره المنحة الإلهية التى كرم الله بها الإنسان على غيره من المخلوقات، لأن طرق ووسائل الإقناع يجب أن توظف لتأصيل العلاقة بين الإنسان وربّه.
- السبعواوى، طه عبدالله (٢٠٠٧م)، "أساليب الإقناع فى المنظور الإسلامى"؛ كتاب تناول الإقناع من المنظور الإسلامى وأسلوب القرآن فى الإقناع، كما تناول أسلوب الإقناع العلمى وأنواعه وكل ما يتعلّق به مع الأمثلة الدالّة والموضّحة ممّا يسهل على القارئ الفهم والاستيعاب.
- ونوقشت وشرحت رسائل الإمام سابقاً كما درست خطبه ورسائله وحكمه فى نهج البلاغة خطابياً وتداولياً، على سبيل المثال:
- الزبيدى، جبار (٢٠١٧م)؛ "رسائل الإمام على (ع) فى نهج البلاغة دراسةً حجاجيةً"؛ هدف الباحث من وراء هذه الدراسة الحجاجية لرسائل الإمام على (ع) عن الآليات الحجاجية الموظّفة من قبل الإمام على (ع) لتدعيم قضيته، وإيصال أفكاره، وتفنيد خطب خصمه بكونها تفاعلاً خطابياً قائماً على الادّعاء والاعتراض فى وجه مهمّ من وجوهها.
- الخزاعى، عمّار حسن (٢٠١٧م). "الخصائص الأسلوبية فى كتاب الإمام على (ع) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف"؛ قدّم الدارس فى هذا الكتاب رؤية أسلوبية فى رسالة الإمام على (ع) إلى عامله بالبصرة ويأخذ بمعطيات علم اللّغة والظواهر الأسلوبية بمستوياتها الثلاثة وهى المستوى الصوتى والتركيبى والدلالى فى هذه الرسالة.
- وهناك أطروحات جامعية ومقالات مرتبطة ببحثنا هذا، مثل:
- فضيلة، ماضوى (٢٠١٥م)، "الإقناعية وآليات الحجاج فى خطب الإمام على ابن أبى طالب (ع)، دراسة تداولية"؛ درست الكاتبة اللّغة غاية ووسيلة فى خطب الإمام (ع) وفق مناهج عدّة على رأسها التداولية التى تعدّ أحدث فروع

العلوم اللغوية تعنى بتحليل عمليات الكلام والكتابة ووصف وظائف الأقوال اللغوية معتمدةً في ذلك على أهمّ قضاياها المتمثلة في أفعال الكلام، المفوضية، الحجاج والسياق وغيرها.

- مقالة لكاتب السطور (٢٠١٧م)، "آليات الإقناع في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي (دراسة نقدية تحليلية)"; درست فيها عناصر الخطابة في خطب حجاج بن يوسف الثقفي مستندةً على الدراسات النقدية الاجتماعية الحديثة.
- مقالة لكاتب السطور (٢٠١٩م)، "دراسة أساليب الإقناع في رسائل الإمام علي (ع) (نموذجاً الرسالة الثامنة والعشرين من نهج البلاغة)" درست فيها أساليب الإقناع وآلياته حسب مناهج الألسنية الحديثة.

لكن الدراسات السابقة في رسائل الإمام وإن كانت في مجال الإقناع والحجاج، انتهجت تطبيقاً لبعض رسائل الإمام كنماذج ولكن رسالة الإمام إلى عامله الحكومي، عثمان بن حنيف (رسالة ٤٥ من نهج البلاغة)، لا تدرس بمفردها تحت إطار نظريات الإقناع والحجاج، فلهذا قمنا بشرح هذه الرسالة تطبيقياً من جانبها الإقناعي والحجاجي لعرض جانب آخر من بلاغة الإمام وأسلوبه الفريد في الردّ والجواب.

التمهيد

الإقناع مصطلحاً

يشكّل الإقناع ركيزة مهمّة من ركائز العمل الرّسالي الذي يهدف إلى التأثير في تكوين الرّأي العامّ وتغيير المعتقد والموقف والسلوك. ومعرفة الأساليب والطّرق التي تؤدّي إلى الإقناع ضرورية في الحقول المختلفة لمن يقصد استمالة الجماهير واستقطابهم وعملية الإقناع تبدأ من الفكرة وطريقة التعبير عنها وأسلوب نقلها والرّبط بين الفكرة والتعبير عنها وكيفية نقلها. والإقناع مصطلحاً: «فعلٌ مؤثر في الرّأي أو في وجهة النظر، إذ يتمّ عن طريق المناقشات أو التفسيرات.» (شمال حسن، ٢٠٠٦م: ٣٠) هذا التعريف كما هو معلوم، يركّز على التأثير في الآخر؛ وذلك عن طريق تغيير رأيه أو موقفه وبدلّ على قدرة التأثير في الآخر، أو القدرة على استمالة الآخر؛ وذلك لحمله على الاعتقاد

بمعتقد ما، أو لحملة على استصدار نمط سلوكي معين، وهذا يقتضى بطبيعة الحال، أن يكون المرسل متمتعاً بهذه القدرة، لكي يتمكن من إحداث التأثير المطلوب. لذلك نرى أنّ الإقناع والتأثير ممارسة بين طرفين أحدهما يريد التأثير في الآخر. وكذلك يعرف الإقناع بأنه: «أى اتصال مكتوب أو شفوي أو سمعي أو بصري يهدف بشكل محدد إلى التأثير على الاتجاهات والاعتقادات أو السلوك. كما أنه القوة التي تستخدم لتجعل شخصاً يقوم بعمل ما عن طريق النصّح والحجّة والمنطق.» (أبو عروب، ٢٠٠٥م: ١٨٩) ويمكن القول بشكل مبسط و شامل بأنّ الإقناع: "فعل متعدّد الأشكال، يسعى لإحداث تأثير أو تغيير معين في الفرد أو الجماعة". وقد شمل هذا التعريف ثلاث جمل:

- "فعل متعدّد الأشكال": يعنى أنه فعل يتمّ بأكثر من شكل وإن كانت الفكرة الأساسية أو الأسلوب واحداً. وباعتبار الأسلوب يكون بالإقناع بالحجّة أو بالتأثير في العاطفة وباعتبار الوضوح يكون مباشراً وغير مباشر.
- "يسعى لإحداث تأثير أو تغيير معين": ويعنى هذا أن الإقناع يسعى للتأثير في الآخر بشكل عام أو جزئى؛ سواء كان في الفكر والسلوك أو في أحدهما.
- "في الفرد أو الجماعة": ويعنى أنّ ممارسة الإقناع والتأثير قد يكون موجّهاً إلى فرد بعينه كما في الدّعوة الفردية وكما بين الزّوجين أو الوالدين لأحد أبنائهما أو تكون موجّهة إلى مجموعة تمثل مجتمعاً نوعياً كمجتمع التجّار. ولكي يحدث الإقناع، لابدّ من تقديم عدد من الحجج والأدلة والشواهد، التي تثبت صحّة القضية التي أرادها المتكلّم.

والحجاج كالإقناع عملية عقلية تعتمد مبدأ استمالة الآخر وتغيير مواقفه العامّة إزاء الأشياء المادّية والفكرية والحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثّل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها.

الرّوابط والعوامل الحجاجية

لما كانت للغة وظيفة حجاجية، وكانت التسلسلات الخطيبية محدّدة بواسطة بنية الأقوال اللغوية وبواسطة العناصر والموادّ التي تمّ تشغيلها، فقد اشتملت اللغات الطّبيعية على مؤشّرات لغوية خاصّة بالحجاج. فاللغة العربية، مثلاً تشتمل على عدد كبير من الرّوابط والعوامل الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية. نذكر من هذه الأدوات: لكن، بل، إذن، حتى، لاسيما، إذ، لأن، بما أن... إلخ. وينبغي أن نميز بين صنفين من المؤشّرات والأدوات الحجاجية: الرّوابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، فالرّوابط تربط بين قولين، أو بين حجّتين على الأصحّ (أو أكثر)، وتساعد لكلّ قول دوراً محدّداً داخل الاستراتيجية الحجاجية العامّة. ويمكن التمثيل للرّوابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، لأن، بما أن، إذ....

أمّا العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما وتضمّ مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلاً، كثيراً، ما...إلا... على هذا الأساس وبعد تمييز الرّوابط والعوامل الحجاجية، تُقسم هذه الرّوابط والعوامل كالتالي؛ فللرّوابط الحجاجية عدّة أنواع:

١. روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك)؛ هي من الأدوات التي حدّدها النحويون العرب لنفي كلام واثبات غيره.
٢. روابط التّساوق الحجاجي (حتّى، لاسيما)؛ يكتسب هذه الرّوابط أهمّيّتها من علاقتها الواضحة والقوية مع المعنى الضمني والمضمر، إذ أن دورها لا يقتصر على إضافة معلومة جديدة إلى سياق الجملة.
٣. روابط التعليل الحجاجي (لأنّ، لام التعليل، كي) هذه الرّوابط من أهمّ ألفاظ التعليل والتفسير وهي إلى جانب هذا تستعمل لتبرير الفعل كما تستعمل لتبرير عدمه.
٤. روابط العطف الحجاجي (الواو، والفاء، وُثمّ)؛ مجموعة من الحروف تضطلع بعبء حجاجي مهم من خلال ربطهما بين الحجج والنتائج والتنسيق بينهما من أجل التعليل والتفسير والتبرير. (راجع: الزبيدي، ٢٠١٧م: ١٠٧-١٠٨)

أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أى بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج) «لكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما، مثل: ربّما، تقريباً، كاد، قليلاً وكثيراً، ما... وإلّا وجّل أدوات القصر.» (الغزوى، ٢٠١٠م: ٦٣) والعوامل الحجاجية تقوم بوظيفة شحن الكلام لتؤدّي وظيفة حجاجية تتلائم مع مقاصد المحاجج وفضلاً عن ذلك تؤدّي إلى مساعدة المتلقّي في تحديد دلالة المراد من الكلام. وثمة فارق هامّ بين الرّوابط والعوامل الحجاجية؛ فالعامل الحجاجي هو الذي يربط بين وحدتين دلّيتين داخل الفعل اللغوي نفسه، أمّا الرابط الحجاجي فهو يربط بين فعلين لغويين.

الفكرة الأساس لهذه الرّسالة

تتمحور هذه الرّسالة على فكرة «الزّهد في الدنيا.» يعاتب الإمام عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دعى إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ثم يتّجه (ع) إلى ما يحثّ المخاطب على الزّهد والقناعة، فيعرض أولاً صورة من حياته (ع) وما ابتنت عليه من زهد وقناعة. ثمّ يقوم بتبيين ضرورة مشاركة الفقراء والمساكين في "جشوبة العيش" وصعوبته. ثمّ يعمد إلى عرض صورة من إعراضه عن الدّنيا وتشوّقه إلى الله تعالى. (پرويني؛ ١٤٣٥ق: ٩) كما أنّ هذه الرّسالة كشفت عن قيمة عثمان بن حنيف المميزة بالنسبة للإمام (ع)؛ «فهو وبّخه بعنف وبشدة لمجرّد استجابته لوليمة دعى لها الأغنياء دون الفقراء، وهذا بجدّ ذاته يكشف عن المقام السّامي لعثمان بن حنيف الذي لم يناسبه ذلك الفعل.» (الخنزاعي، ٢٠١٧م: ١٠٣)

آليات الإقناع ووسائله في رسالة ٤٥ من نهج البلاغة

روابط التعارض الحجاجي

الرّابط الحجاجي (لكن)

وهي من الأدوات التي حدّدها النحويون العرب لنفسى كلام واثبات غيره وهو «حرف استدراك، ومعنى الاستدراك أن تنسب حكماً لاسمها يخالف المحكوم عليه

قبلها، كأنك لما أخبرت عن الأوّل بخبر خفت أن يتوهم من الثانى مثل ذلك فتداركت بخبره إن سلباً وإن إيجاباً... ولا تقع لكن إلا بين متنافيين بوجه ما... ومن هذا المنطلق فإن هذه الأداة تقيم علاقة ربط بين قولين متناقضين أو متنافيين هو من الناحية المحجاجة ربط حجاجى تداولى بين المعطى والنتيجة.» (المرادى، ١٩٩٢م: ٥٩١)

لو أخذنا مثالا لذلك فى هذه الرسالة لمثلنا قوله عليه السلام:

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقُرْ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيُقَوِّدَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّيْبِ! أَوْ أُبَيْتَ مِيطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرَّتِي، وَأَكْبَادٌ حَرَّتِي.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

نلاحظ أن الرّابط المحجاجة (لكن) قد عمل تعارضا حجاجيا بين ما تقدّمه وما تأخّر عنه، فى بداية الأمر يشير الإمام إلى أنه يقدر على الثراء وترف العيش ويستطيع أن يتمتع بلذائذ الدنيا وحطامها، ثم فى القسم الثانى من الكلام يشير إلى زهده ومواساته الفقر ويربط هذين الجملتين بلكن الإستدراكية وبما أن القسم الثانى يأتى بنتيجة مضادة للأوّل، فهو أقوى من الحجّة الأولى. فى هذه العبارة أتى المتكلم حرف الاستدراك فى سياق "لو" وبذلك يكون ما قبل (لكن) منفي؛ لأنّ (لو) تدلّ على امتناع الشئ لامتناع غيره وهنا تدلّ على أنّ المشيئة ممتنعة فى المعنى، فلمّا قيل «ولكن هيهات أن يغلبنى هواي...» علم إثبات ما فهم إثباته وهو سبب (الزهد ومواساة الفقراء) الذى يقتضى نفى المشيئة فيصبح المعنى (ولكنى لم أشأ اهتداء الطريق إلى مصفى العسل...) وبذلك يكون ما قبل (لكن) منفي وما أحدثه الرّابط إنّما هو الإستدراك وهو رفع ما يتوهم ثبوته.

روابط التّساوق المحجاجة:

الرّابط المحجاجة (حتى):

يبرز الرّابط المحجاجة (حتى) كمؤشر حجاجى بارز فى رسائل الإمام (ع) ويكتسب هذا الرّابط أهميته من علاقته الواضحة الوطيدة مع المعنى الضمنى والمضمر؛ إذ أنّ

دورها لا يقتصر على إضافة معلومة جديدة إلى سياق الجملة كما لو نقول (جاء زيد) فتكون (حتى زيد جاء) إذا كان مجيء زيد غير متوقع، بل «إن دور هذا الرابط يتمثل في إدراج حجة جديدة تردف الحجة التي تسبقها وتساوقها والحجتان تخدمان نتيجة واحدة، لكن بدرجات متفاوتة من حيث القوة الحجاجية.» (الغزوى، ٢٠١٠م: ٢٧)

والإمام في شطر من هذه الرسالة هكذا يسطر:

«وَاللَّهِ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمَكَّنَتِ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمُعْكَوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكُرَى عَلَيْهَا أَفْتَرَشَتْ أَرْضَهَا.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا الرّابط (حتى) يأتي لتبين نتيجة وسبباً لما قبله؛ فإنّ القول المشتمل على (حتى) يكون أقوى ممّا قبله وربما يأتي (حتى) بمعنى كى التعليلية:

الف: سأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس.

ب: حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد.

فجملة (ألف) يمكن أن نعدّه حجة وجملة (ب) يكون نتيجة لما قبلها.

موضوع هذا النصّ المختار بيان مدى القوة الإيمانية التي يتمتع بها المرسل وكذلك الثبات ورباطة الجأش على الموقف السليم وإن عارضت العرب بأسرها، «فإنه عازم على تطهير الأرض من معاوية بن أبي سفيان وهذا الأمر يستلزم من المستقبل كذلك الثبات على مواقفه حتى وإن تفرقت عنه الناس فيما إذا لم يجب الولائم التي تكون خاصة بالأغنياء دون الفقراء، فإنّ عليه الالتزام بما يمليه عليه الواجب الشرعي الذي يتطلب مراعاة كافة فئات المجتمع.» (الخنزاعي، ٢٠١٧م: ٦٧) والإمام في مقام إتاحة الفرصة له، فإنه لا يهدأ إلا بعد أن يطهر الأرض من معاوية وبين حقيقته ومعدنه الفاسد إذ هو كقطعة طين بين حبّ القمح حتى يخرج من تلونه بلون الصالحين؛ إذ هو كقطعة طين يابسة متخفية بين حبّ القمح الكثير.

الموجّهات الحجاجية

الموجّهات اللغوية محمّلة بطاقة حجاجية، يتمّ استثمارها من قبل المتكلّم فتكون قادرةً على توجيه الملفوظ تبعاً لمقصدات الكلام ومتطلّبات التلقّي «ورسائل الإمام قد اصطبغت بمجموعة من الموجّهات الحجاجية التي تحقّق الإقناع والتأثير ومن ثمّ توجيه المتلقّي نحو فعل ما أو تركه (الإقناع أو الإذعان)». (الزبيدي، ٢٠١٧م: ١٥١-١٥٢) وهذه الموجّهات إمّا يقينية كأدوات القصر والتوكيد وأفعال اليقين... وإمّا تقريبية أو موجّهات الشكّ بألفاظ مثل: يبدو، كأنّ، زعم، لعلّ وظنّ... وهذه العوامل الحجاجية وغيرها من شأنها أن تجعل الملفوظ ذا سمة ذاتية من خلال الإعلان عن حضور صاحبه فيه حضوراً بارزاً للعيان تكسبه صبغة موضوعية. (صولة، ٢٠٠٧م: ٣١٧)

الموجّهات اليقينية

الف - القسم

يعدّ القسم صنفاً من أصناف الفعل الكلامي التي توجّه القول توجيهاً يقينياً اثباتياً يلجأ إليه المتكلّم لتوكيد كلامه؛ فهو إذ يثبت القضية ويوجبها يقيم في الوقت نفسه الحجّة على المخاطب ويلزمه بها وفي ذلك يقول أبو القاسم القشيري: «إنّ الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيداها وذلك أنّ الحكم يفصل بأثنين: إمّا بالشهادة وإمّا بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا تبقى لهم حجّة». (السيوطي، ٢٠٠٦م، ٢: ١٣٣) كما تكشف الملفوظات المؤكّدة بالقسم صورتين متعارضتين يمكن استخلاصهما من مجمل رسائل الإمام حيث تزيد درجة إثبات الدّعوى بارتفاع درجة الإنكار وتطابق الجمل أنماط مقامية مختلفة، «تتميز بموقف المخاطب من فحوى القضية انطلاقاً من مجرد التردّد في قبول هذا الفحوى إلى الإنكار التامّ؛ فكلّما ازداد الإنكار احتيج إلى مضاعفة التوكيد». (المتوكل، ١٩٩٥م: ١٨٨) ويتجلّى ذلك الظهور للدّعوى في أنماط بُنيوية متباينة وذلك حتّى تكون منسجمة ومطابقة مقامية متميزة، أشهرها:

الف - الطّبعة المقامية الأولى

وهي الطّبعة التي يكون فيها المخاطب جاهلاً بالمعلومة التي يقصد المتكلّم إعطاءه

إياها أو يعتبر المتكلم أنّ المخاطب يجهلها أى إنّ المعلومة المقدّمة لا تدخل فى القاسم الإخبارى المشترك بين المتكلم والمخاطب. (المصدر نفسه: ٢٩) وتمثّل العبارات التالية هذه الطبقة:

- وَاللّٰهُ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلٰى قِتَالِي لَمَّا وَّلَّيْتُ عَنْهَا.
- وَاللّٰهُ لَوْ كُنْتَ شَخْصًا مَّرِيئًا، وَقَالَبَا حَسِيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللّٰهِ.

فى العبارة الأولى يشير الإمام إلى شجاعته وقوّته والعبارة الثانية كناية عن وقوعهم فى خطر عظيم بحيث لا يمكن الخروج عنه وعبارة أخرى: «سُدَّ عَلَيْهِم بَاب الْوُرُودِ وَالْخُرُوجِ وَهُوَ عَالَمُ الْقَبْرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَوَارِدِ» (مفتاح، ١٩٩٠م: ٣٥٧) وبعد أن خاطب الإمام الدّنيا أتى بجواب القسم فى النمط الطلبيّ التى يجهلها المخاطب بالنسبة للمتكلّم، لذلك يلجأ الأخير إلى إثباتها والسعى إلى حصول اليقين والإطمئنان بيقينها فى ذهن المتلقّى وكأنّ المتكلم يدفع بالمخاطب إلى الوثوق بكلامه حين يقدّم له معلومة يجهلها فيعمل (المتكلم) على تأكيدها بأعلى درجات الإثبات.

ب- الطبقة المقامية الثانية

هى الطبقة المقامية التى يتوقّف فيها المخاطب على المعلومة التى يعدها المتكلم معلومة غير واردة ويعمل المتكلم على تصحيحها للمخاطب وتمثّلها الفقرة التالية:

«فَوَاللّٰهِ لَا أَذِلُّ لِكَ فَتَسْتَذِيئِي، وَلَا أَسْلُسُ لِكَ فَتَقُودِي، وَإِيْمُ اللّٰهِ - يَمِينَا أَسْتَشْنِي فِيهَا بِمِشِيئَةِ اللّٰهِ - لِأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا، وَتَقْنَعُ بِالْمَلْحِ مَادُومًا، وَلَا دَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا استعمل الإمام القسم وأتى بجواب القسم فى نمط الخبر المنفى كى يخاطب الدّنيا ويبيدها عن نفسه قائلاً: لا أجعل نفسى ذليلاً منقاداً للدّنيا حتّى تحقرنى، ويلجأ إلى القسم، حتى يثبت عدم حرصه على الدّنيا وانقياده إلى ملذّاتها ورجائها وهو بوصفه هذا يريد أن يقنع المخاطب كى يجذّر من مغريات الدّنيا ومكائدها. «واستعار وصف إسلاس القياد للتسهيل فى متابعة النفس العاقلة للنفس الأمّارة وعدم التشدّد فى

ضبطها باستعمال العقل عن متابعتها.» (الأسدي، ٢٠٠٦م: ٥٥٩) ثم استعمل قسماً آخر استثنى فيها بمشيئة الله وجواب القسم تمثل النمط الخبري المؤكّد (وايم الله)؛ وهو درّب نفسه بالجوع واكتفى بقرص وبكى حتى لا يبقى دمع في عينيه «ومحصّل هذه الكلمات هو اعتياد النفس بالقرص والملح واعتياد العين بالبكاء من خشية الله تعالى.» (مفتاح، ١٩٩٠م: ٣٥٨) فاستدعاء القسم قد ساهم مساهمة فعّالة في إبراز الوقع الحجاجي؛ لأنّ أثره يكون أشدّ على المخاطب وأعمق أثراً فيه ممّا لو كان الجواب عارياً عن مظاهر التوكيد. من هنا نجد أنّ القسم الحجاجي قد انتصب على المكوّن الدالّ على المعلومة الجديدة التي يعتقدونها المتكلّم نفيّاً أو إيجاباً.

وأما سبب إتيان المرسل بهذه الكمية من المؤكّدات؛ «فلأنّه في معرض الحديث عن سمات نفس مثالية استطاع صاحبها أن يروّضها، كيفما شاء ويجعلها محكومة به لا محكوماً بها.» (الخرزاعي، ٢٠١٧م: ٦٨) وفي مثال آخر يقول الإمام:

– «فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا وَلَا أَدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفِرًّا، وَلَا أَعَدَدْتُ لِبَالِي تُوْبِي طُمْرًا. وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقَوْتِ أَتَانِ دَبْرَةٍ وَهَلِي فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةِ مَقْرَةٍ فَوَاللَّهِ لَا أَذِلُّ لِكَ فَتَسْتَدْلِينِي، وَلَا أَسْلُسُ لِكَ فَتَقُودِينِي.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

انتظمت العبارة التي أشير إليها بخطّ (في هذه الفقرة) بجو إيقاعي منتظم وذلك بالتوافق في البنية التركيبية التي يمكن أن نمثلها كالتالي:

نفي + فعل ماضى + تاء الفاعل + شبه جملة (جا رو مجرور) + مضاف إليه + مفعول به وهذا التشاكل التركيبي منح النصّ إيقاعاً متميزاً شكّل سمة تنبيهية للمخاطب، «مهمتها لفت الانتباه إلى ما ورد في النصّ وزيادة التفاعل التواصلي مع المادة المرسلّة ويستوقف متلقّي الخطاب (ابن حنيف) وينبّهه إلى السنّة التي اتبعها إمامه، فيعرف بذلك مخالفته التي ارتكبتها.» (الخرزاعي، ٢٠١٧م: ٤١)

إنّ الإمام بعد أن ذكر بأنهم لا يقدرّون على القناعة ويطلب منهم مساعدته ونصرته بورع واجتهاد، أقسم بالله قسماً صادقاً بأنه ما كثر وما جمع الفضة والذهب وما ادّخر غنيمة لأهله. من الواضح في هذا القول أنه يمثّل جواب القسم في النمط الخبري المنفي

والقسّم شكّل نقطة اشتراك بين طرفي الخطاب وهذا الإجماع ناتجٌ عن العظمة التي يحملها المقسم به التي تبرز عبر هذا العوامل الحجاجية وللمقسم به قوّة في تحقيق قيمة الكلام التأثيرية. تبين الملفوظات المؤكّدة بالقسّم «محاولة المتكلم لإقناع الخصم بوسم خطابه بأعلى درجات التأكيد ومن ثمّ يصبح للملفوظ درجة حجاجية عالية.» (ابن خراف، ٢٠١٠ م: ٢٥١)

إنّ الإمام بهذه العبارات والحجج المنفية يسوق على زهده في الدّنيا والإعراض عن ملذّاتها؛ كما إنها جاءت مرتبةً ومرتدّجةً من الحجّة الأقلّ دلالةً على المدلول إلى الحجّة الأقوى لتؤوّل بمجملها إلى نتيجةً ضمنية. إنّ نفى إحدى الحجج يؤدّي إلى نفى مدلول الخطاب؛ بعبارة أخرى إنّ قوّة النفى تترتب عكسياً في السّلم فنيض (ماكزرت من دنياكم تبراً) أي إثبات هذا الأمر هو دليل أقوى من الأدلّة الأخرى على الرّغبة والحرص على الدّنيا. حينما يقول الإمام: ما كنزت من دنياكم تبراً، تؤوّل إلى النتيجة: الزهد والإعراض عن الدّنيا. ويكنز من الدّنيا تبراً تؤوّل إلى النتيجة المضادّة: الرّغبة والحرص على الدّنيا. فمادامت الدّنيا في نظر الإمام لا تساوى عفضة مقرّة فكيف يكنز من الدّنيا التبر، فتصبح الحجّة (ولهى في عيني أوهى وأوهن من عفضة مقرّة) هي الحجّة الأقوى على زهد الإمام وإعراضه عن الدّنيا وملذّاتها.

ب- القصر

من الوسائل اللّغوية التي يلجأ إليها المتكلم حتى يوجّه خطابه توجيه اثبات. والقصر لغةً الحبس وفي الإصطلاح تخصيص أمر بأمر بأسلوب معين أي حبسه عليه وجعله ملازماً له. «وهو أداة توكيد وتخصيص وكلّما قويت الحاجة إليهما كان القصر أبلغ.» (قصاب؛ ١٩٩٩ م: ١٦١) وإنّ التوكيد بالقصر هو عمل إنجازي يعتمد المتكلم في توجيه المخاطب وجعله يسير في الاتجاه الذي يحدده ويرسمه المتكلم «وبالنتيجة دفع المتلقى إلى أعمال الاستنتاج لديه. فالأقوال التي تتضمّن هذه العوامل الحجاجية (أدوات القصر) في حقيقتها قائمة على ثنائية النفى والإثبات من حيث السلوك الحجاجي والوجهة الحجاجية كما إنها تبين التعارض بين المعنى الإخباري والمعنى الحجاجي.»

(الزبيدي، ٢٠١٧م: ١٦٧)

ج- "إنما"

ذكر الجرجاني أن: "إنما" يؤتى بها الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته ولكن لا يعلمه ويقرّ به كما أنها تأتي إثباتاً لما يذكر بعدها وتوكيداً لها (الجرجاني؛ ١٩٩١م: ٣٢٧) ومثال ذلك في هذه الرسالة:

«إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرَوْضَهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمُرْتَقِي.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

إن الإمام يدلّل نفسه ويحقره بسبب التقوى ويؤكد كلامه بإنما؛ لأنّ الإمام يعتقد أنّ رياضة النفس تنفّذ بالتقوى لا بالثقل والتقصّف لتأتي النفس آمنة مطمئنة يوم الفزع الأكبر وتثبت في مواضع تخشى الزلّة فيها ولاسيما جسر الصراط، وترويض النفس بالتقوى هو أن يطهر الإنسان نفسه من كلّ شائبة كالكذب والحسد وأن يحلّي ضميره بحبّ الخير للناس.

الموجّهات التقريبية

الموجّه التقريبي (ظنّ)

هو أحد طرفي التشبيه بصفة الرّجحان وهو من الأفعال التلميحية التي تفيد «الظنّ في الظاهر مع احتمالها في بعض المواضع لليقين.» (الأستراباذي، ١٩٩٦م: ١٤٩) فهي أداة تدرج ضمن سلّم قوّة الاعتقاد بين العلم والحسبان، فتكون في مرتبة دون مرتبة أفعال اليقين ولكن من حيث القوّة الاعتقادية. نجد أنّ اليقين والظنّ متساويان مع خصوصية كلّ منهما واختلافهما في الاتجاه. فالإتجاه الذي نقصده هو علاقة مضمون الكلام بالخارج أي إمّا باتجاه أقصى اليمين نحو العلم أو باتجاه أقصى اليسار نحو الشكّ؛ فإذا كان العلم يدلّ على اليقين أي اعتقاد جازم في مطابقة مضمون الكلام لحالة الأشياء في الكون، فإنّ الظنّ والحسبان يدلّان على اعتقاد جازم في انتفاء هذه المطابقة (المبخوت، ٢٠١٠م: ٥٤) ومثال "الظنّ" في هذه الرسالة:

«أَمَا بَعْدُ، يَا بَنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادِيَةٍ فَاسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأُلْوَانُ، وَتُنْقَلُ عَلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوءٌ، وَغَنِيَهُمْ مَدْعُوءٌ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا يخاطب الإمام عثمان بن حنيف ويوجّهه بسبب حضوره في مجلس الأغنياء ويتعجب الإمام ويقول: أنت من المؤمنين فما ظننت بك الإجابة هذه. أمّا "ظنّ" إحدى أدوات الإقناع حيث تقتضى هنا (إنك تجيب إلى طعام) لكن الجملة المنفية تقتضى (إنك لا تجيب إلى طعام قوم...).

أمّا تأثير النفي في مقتضى الفعل "ظنّ" وتحديد المقصود من نفي هذا الفعل، وما يؤدّيه من احتمالات في التأويل الدلالي، فوجد أنّ التحقق يتقلب بموجب النفي إلى اقتضاء لعدم التحقق.

حيث تقتضى "ظنّ" (هنا على وجه الترجيح) إنك تجيب إلى طعام... لكن الجملة المنفية تقتضى (إنك لا تجيب إلى طعام قوم)... وهذا الأمر يجعلنا نعود إلى الخلف لبيان صورة "ظنّ" في الإثبات حيث نجدها لا تعين مقتضيات مفاعيلها من حيث التحقق وعدم التحقق، «فالإمام في هذه المسألة يحمل شكّه شكاً آخر من أجل التعبير عن عدم التزامه بصدق مضمون كلامه، لكي يحقق مفهوم الالتزام والمطابقة بين الكلام والاعتقاد والخارج؛ لأنّ الأدلّة والبراهين السلبية الواقعية الملازمة للمخاطب، ابن حنيف - نسبية - لا ترقى إلى إثبات فساده، أي هناك عدم مطابقة بين الخارج والإعتقاد.» (الزبيدي، ٢٠١٧ م: ١٧٦-١٧٧)

السُّلْمُ الحِجَاجِي فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ

تتجلّى العلاقة المجازية بين الدّعوى والحجّة، لتصبح علاقة شبه منطقية إلى حدّ ما، وذلك بالرّغم من أنها تتجسّد، بطبيعة الحال، من خلال الأدوات اللّغوية، فيتمثّل صلب فعل الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوّتها؛ إذ لا يثبت غالباً في السّياق. لذلك يرتّب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوّة اللاّزمة التي تدعم دعواه. وهذا الترتيب هو ما يسمّى "بالسُّلْم الحِجَاجِي". ويمكن تعريف السُّلْم الحِجَاجِي بأنّه: «عبارة

عن مجموعة فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وله ثلاثة قوانين:

١- قانون الحفض.

٢- قانون تبديل السلم.

٣- قانون القلب. (الشهرى، ٢٠٠٤م: ٤٩٩-٥٠٠)

ونجد أنّ رسائل الإمام (ع) لا تخلو من تمثّلات لهذا النوع المحجّج اللغوى الذى يكشف عن قوّة الحجج وترتيبها فى القول؛ بل لا بدّ لكلّ قول بطبيعته أن يخضع لسلمية وتراتبية معينة فى خدمة النتيجة أو القول بأسره.

يقول الإمام عليه السلام فى هذا الصّد:

«فَوَاللّهِ مَا كُنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طَمْرًا. وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَةٍ وَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةِ مَقْرَةٍ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

ومثلما يصدّق السلم المحجّج فى الإثبات، فإنه أيضاً يصدّق فى النفى، فالإمام يسوق أكثر من دليل على زهده فى الدنيا والإعراض عن ملذّاتها، حيث نجد أنّ الحجج المستعملة فى هذا المثال هى حجج منفية، كما إنّها جاءت مرتبة عمودياً ومتدرّجة من الحجّة الأقلّ دلالة على المدلول إلى الحجّة الأقوى، لتؤوّل بجمعها إلى نتيجة ضمنية هى (الإمام رجل زاهد) ويمكن أن ندرج هذه الأدلّة على زهده بحسب قوتها فى السلم المحجّج بالشكل التالى:

النتيجة (الزهد والإعراض عن الدنيا)

هى فى عيني أوهى وأوهن من عفصة مقرة

ولا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا

ولا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طَمْرًا

ولا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا

فو الله ما كنزت من دنياكم تبرا

ولو مثلنا هذه الحجج بدون نفى، فإنه يتغير مجمل الخطاب؛ فتصبح الحجة الأقل مدلولاً في أسفل السلم هي الحجة الأقوى دلالةً على النتيجة المضادة للنتيجة السابقة، ويمكن إيضاح هذا الأمر عبر السلم المجاجى التالي:

نفى النتيجة (الرغبة والحرص على الدنيا)	↑
يكنز من الدنيا تبراً	—
ادّخر من غنائمها وفرأ	—
اعد لبالي ثوبه طمراً	—
حاز من أرضها شبراً	—
أخذ من قوتها	—
شأنها ومحبّتها كبيرة في عينه	—

يترتب على ذلك أن نقيض إحدى الأدلة / الحجج (يؤدى إلى نفى مدلول الخطاب وهذا ما يسمّى بقانون تبديل السلم ونتيجة لذلك نتبين أن قوة النفي / النقيض ترتب ترتيباً عكسياً في السلم، فنقيض (ما كنزت من دنياكم تبراً) أى إثبات هذا الأمر هو دليل أقوى من كل الأدلة الأخرى على الرغبة والحرص على الدنيا.

حجاجة الصورة الفنيّة

اتّفق الدارسون على أهمية الصورة الفنيّة كحجر الأساس فى بناء العمل الفنّي والتصوير وسيلة من وسائل الدلالة البليغة التى تتمكّن فى النفس فيكون لها الأثر العميق فى الإبلاغ والإثارة وهى توظّف لغاية الإقناع والتأثير قبل أن ينحسر دورها وتعتبر الاستعارات من أساليب التعبير الفعّالة التى نستخدمها لترك انطباعات دائمية حية. يقول الباحث النفسى اللغوى المشهور عالمياً سوزيتيه هادين إالحين: «تعتبر الاستعارات أكثر الوسائل فعالية من أجل تغيير مواقف الأشخاص بسرعة وفعالية وبصورة دائمة.» (الشهرى، ٢٠٠٤ م: ٤٨٥) وتشكّل الاستعارات الطّريقة التى نفكّر بها،

فهي تشبه هياكل النوافذ التي يصممها المعمار ليصل إلى المنظر المطلوب، بل إن أطر النوافذ لا تركز فقط على ما ينظر إليه، «فإنها أيضاً تحدّد ما تستطيع أن تشاهده، لذا فإنّ الاستعارات تعمل بنفس الطريقة، إذ إنها تركز على خصائص معينة، بينما تخفي خصائص أخرى.» (المصدر نفسه: ٤٩٥)

والإستعارة لغةً رفع الشئ وتحويله من مكان إلى آخر واصطلاحاً هو علم من علوم البيان وهي مجاز لغوي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المشابهة (سارة، ٢٠١٥ م: ٦٢) ومن أمثلة تلك في هذه الرسالة يقول الإمام:

«وَاللّٰهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَّا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أُمَكَّنَتِ الْفَرَسُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعَتْ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا يتحدث الإمام عن حُبث طبع معاوية ووصفه بالمعكوس والمركوس ويعتقد من الواجب أن يطهّر الأرض من هذا الشّخص الخبيث. أراد الإمام من كلمة (معكوس) بأنّ معاوية رجل أوّله آخره وآخره كأوله وأراد (بالمركوس) إلى مقام نفاقه يعني ظاهره، خلاف باطنه وعبرّ بالجسم قاصداً أنّه لا يسمّى إنساناً بل جسم من الأجسام كالجُمادات والنباتات غير أنه يشرب ويأكل كالإنسان «ومحصّل الكلام؛ خروجه عن مقام الإنسانية.» (النقوى، ١٣٨٣ق: ٣٥٤)

ثمّ في نهاية الفقرة تعبّر عن لفظين عن طريق الإستعارة وهما "المدرة" و"حَبّ الحصيد"؛ استعار لفظ "المدرة" لمعاوية ويكنّى بها عن الكفر ولفظ "حَبّ الحصيد" للمؤمنين ويكنّى بها عن الإيمان؛ استوحى هذه الصّورة الفنية ليشبّه معاوية بجمر وشبّه الناس بالحَبّ الذّي هو ثمرة الزّرع. فوجود معاوية بين المسلمين كالمدرة بين حَبّ الحصيد يوجب الفساد ويضللّ العباد «ووجه المشابهة أنّه مخلص للمؤمنين من وجود معاوية بينهم ليزكوا إيمانهم ويستقيم دينهم؛ إذ كان وجوده فيهم سبباً عظيماً لفساد عقائدهم وهلاك دينهم كما يفعل أهل البيادر من تصفية الغلال وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره.» (الأسدي، ٢٠٠٦م: ٥٥٧) إنّ هذه الصّورة التي رسمها الإمام يوافق مع المخاطبين، لأنّهم من أصحاب الزّرع والإمام يريد أن يؤثّر في نفسية المخاطب عن طريق هذه التشبيه

ويؤكد بأن تواجد معاوية بين المسلمين يسبب فساد عقائدهم وهلاك دينهم. والإمام لجأ إلى أسلوب الكناية الذي يتضمّن خرق المعنى الحرفي والمعجمي للملفوظات لتشكيل صورة تتضمّن خيالاً أوسع «ويحفز المتلقّي إلى البحث عنها ويحاول جاداً اكتشاف ما يقصده المرسل». (الخزاعي، ٢٠١٧م: ٩٧)

كما أشار أمير المؤمنين إلى حاله مع الدنيا (في هذه الرسالة) بقوله:

«إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَيَّ غَارِبِكِ». (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

في هذه الفقرة يمثّل الإمام الدنيا بصورة من يعقل ويخاطبها بخطاب العاقل ليكون ذلك أوقع في النفوس وأمرها بالتنحّي والإبتعاد ويكتنّى بها عن الطلاق والترك؛ لأنه شبّه الدنيا بالحيوان الذي حبله على غاربه وهو يذهب حيث يشاء، فقد حرّر الإمام نفسه عن ملذّات الدنيا وشهواتها. ومرة أخرى شبّهها بالحيوان الذي له مخالف (قد أنسلت من مخالبيك) «استعارة بالكناية عن كونها كالأسد في جذبها للإنسان بما فيها من الشهوات والقينات إلى الهلاك الأبدى كما يجرّ الأسد فريسته». (الأسدي، ٢٠٠٦م: ٥٥٨)، ثم شبّه الدنيا بالصائد (وأفلت من حبايلك) و«كنّى بهذا الوصف المستعار عن كونها تصيّد قلوب الرّجال بشهواتها الوهمية فهي لها كحبايل الصائد». (المصدر نفسه) كما أن الصياد يصيد الحيوانات بحبايله، إن الدنيا تصيد الناس بطواهرها ومغرياتها ويشير الإمام إلى خلاصه ونجاته من الدنيا الدنية. وفي عبارة (واجتنبت الذهاب في مداحضك) «استعار لفظ مداحضها لشهواتها وملذّاتها باعتبار كونها مزلق أقدام العقول عن طريق الله ومصارع لها» (المصدر نفسه) والإمام شبّه الدنيا بالأرض الواسعة التي لها مراتع كثيرة خضرة وشبّه نفسه الشريفة بمن يرتع فيها، ومن أمثلة تلك قوله عليه السلام: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ النَّضْرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالثَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ حُمُوداً». (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا جاء الإمام بأربعة تمثيلات كي تشرح بأنّه ليس علاقة بين القوّة والشجاعة وأكل الطيبات من الرزق؛ لأنّهم يعتقدون بضعف الإمام عن قتال الأقران بسبب قوته النزر؛ لذلك يجيهم بهذه التمثيلات. أولاً في عبارة (إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً) يمثّل الإمام

بالشجرة البرية ويقاس نفسه عليها في الشجاعة والصلابة، كما أن الشجرة البرية تنبت في الصحراء ولا تتغذى إلا بماء المطر، لكن عوده أصلب من الشجرة الأهلية التي تنبت في المزارع وهي أضعف بالنسبة للشجرة البرية؛ إن الإمام أيضاً مع قلة غذاءه يكون أقوى من الآخرين، لأنه يتحمل في حياته كثيراً من الصعوبات خلافاً للذين يعيشون عيشة طيبة وليس لديهم القدرة أمام الصعوبات «والمشترك الجامع بينهما هو قلة الغذاء وجسوبة المطعم كقلة غذاء الشجرة البرية وسوء رعيها والحكم عن ذلك هو صلابة أعضائه وقوته كصلابة عود الشجرة البرية وقوتها». (الأسدي، ٢٠٠٦ م: ٥٥٦)

وفي عبارة «وَالرَّوَّاعِ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً» تشبيه معاوية وأصحابه بالرّوائع الخضرة وهي الأشجار والأعشاب الغضة الناعمة الحسنة؛ لأنهم يعجزون عن المقاومة ولا يمكن لهم التجلّد على المصائب ويميلون إلى الدعة والرّفاهية «والمشترك الجامع بينهما هو الخضرة والنضارة الحاصلة عن الترف ولين المطعم والحكم اللازم عن ذلك هو رقة الجلود ولينها والضعف عن المقاومة وقلة الصبر على المنازلة والميل إلى الدعة والرّفاهية والغرض أن يعلم كون أفرانه أضعف منه». (المصدر نفسه: ٥٥٧) وفي النهاية «وَالنَّائِبَاتِ الْعِذِيَّةِ أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ حُمُوداً» شبه الإمام نفسه بالنباتات العذية التي يسقيها ماء المطر وبسبب ذلك يكون أقوى على إشعال نار الحرب ويتصف بالصبر.

وكذلك في هذه الفقرة قد أتى الإمام بعدة مؤكّدات عندما أحسّ بتسرّب الشكّ إلى ذهن المستقبل من أجل أن يستحکم الخبر في نفسه. «لأنّ وظيفة الخبر تثبيث المعنى في تلك النفس الرافضة له؛ فلا بدّ أن تكون العبارة ووثاقتها ملائمة لحال النفس، قادرة على الإقناع». (حسنين موسى، ١٩٨٠ م: ٨١)

وبعد ذلك لتأكيد كلامه أي توصيف شجاعته، مثل الإمام، نفسه أمام رسول الله في العلم والقدرة والزهد والحلم والصبر قائلاً: «أَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضُّوءِ مِنَ الضُّوءِ» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

«وأصل هذا التمثيل هو الضوء بالضوء وفرعه نسبة نفسه من رسول الله وعلته الجامعة هي كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوة وكمالاتها كالمعلوم من العلة». (الأسدي، ٢٠٠٦ م: ٥٥٧)

شكل الصورة وأبعادها الحجاجية

فى هذا القسم من المقالة ندرس المنحنى الحجاجى الذى تؤدیه الصورة الفنية انطلاقاً من شكلها (القالب/الهيكل) الذى يحوى تلك المادة المستمدّة أو المستقاة من الواقع الذى تعارف الناس عليه وهذا الشكل أو البناء التصويرى قد يظهر بأشكال أسلوبية متعدّدة. ومن أمثلته قوله عليه السّلام إلى عثمان بن حنيف، فى حاله مع الدّنيا وتطلّعه إلى الآخرة:

«طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنَبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكُرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرِ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، تَحَافَتٌ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

فقوله (عركت بجانبها بؤسها) كناية عن الصبر على نزول المصائب والبؤس يقال: «عرك فلان بجانبه الأذى، إذا أغضى الطرف عمّن يؤذيه وصبر على فعله، ويلازم ذلك عدّة فضائل كالحلم والكرم والعفو والصّفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفة ونحوها.» وقوله (وهجرت فى الليل غمضها) كناية عن إحياء النفس ليلها بعبادة ربّها واشتغالها بذكره، و«تحافت عن مضاجعهم جنوبهم» كناية، إذ إنّ اجسامهم لم تكن لتستقرّ على فراشها خوفاً من معادها واشتغالاً بما يصلح آخرتها. هذه الفقرة المصطفاة تعتمد على الشّكل الثانى من أشكال (القالب/الهيكل) الصورة الفنية الحجاجية أى:

دليل ← مدلول
(أ) يجاور (ج) ← (أ)

وينطبق هذا الشكل على الكناية بمختلف أنواعها سواء كانت كناية عن صفة أو كناية عن موصوف، حيث يجاور المكنّى عنه المكنّى به.

و مثال آخر فى هذه الرّسالة قوله عليه السّلام: «وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالصُّنُومِ مِنَ الصُّنُومِ وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضُدِ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هذه الفقرة من رسالة الإمام تعتمد على الشّكل الثالث من أشكال الصورة الفنية الحجاجية على النحو التالى:

دليل ← مدلول

(أ، ب) = (ج، د) ← (أ، ب)

وينطبق هذا الشكل على التشبيه التمثيلي الذي يكون قائماً على المشابهة بين البنى، حيث يمثل العنصر (أ) بالنسبة للعنصر (ب) ما يمثله العنصر (ج) بالنسبة للعنصر (د) (الزمانى، ٢٠١٢م: ٢٠٤)

فيكون شكل التشبيه على هذا الأساس فى هذا التمثيل كالاتى:

أ. الامام على عليه السلام

ب. رسول الله صلى الله عليه وآله

ج. الصنو / الذراع

د. الصنو / العضد

أى مكانة الإمام (ع) أمام رسول الله (ص) كمنزلة الصنو من الصنو أو بمنزلة الذراع من العضد.

وقد يختلف شكل التمثيل بحسب تعدد عناصره المذكورة، فقد تكون تلك العناصر أربعة كما فى المثال السابق وقد تكون أكثر من أربعة أو أقل، إذ قد يكون انعقاد التشبيه التمثيلي بين عناصر متعددة من المهتين المشبه والمشبه به تزيد على هذا العدد.

و مثال ذلك قوله عليه السلام: «وَكَانَ بَقَائِلِكُمْ يَقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمَنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ أَلَا وَإِنَّ الشَّجْرَةَ البَّرِّيَّةَ أَصْلَبَ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ النُّضْرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ العُذِيَّةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأَ خُمُوداً.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

نجد أن الشكل أعلاه قد استجاب إلى الشكل النموذج بحيث يصبح تشابه العلاقة قائمة على بنيتين هما:

قلّة طعام الامام وجشوية المطعم.

صلابة أعضاء الامام وقوّته.

(ج): قلّة غذاء الشجرة البرية وسوء رعيها.

(د): صلابة عود الشجرة البرية وقوّتها.

النضارة والرقّة الحاصلة من ترف ولين مطعم خصوم الإمام وأقرانه كمعاوية .

الضعف عن المقاومة وقلة الصبر على المنازلة والميل الى الدعة والرّفاهية.

(ج): الرّواتع الخضراء.

(د): رقّة الجلود وليّنها.

قلّة طعام الإمام وجشوبة المطعم .

أقوى على سعي نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخوداً.

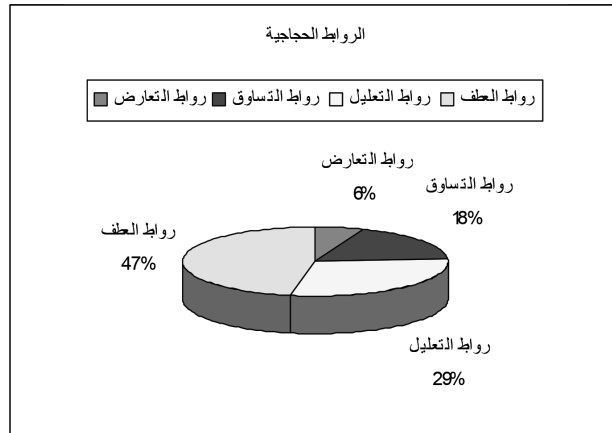
(ج): النباتات العذية.

(د): بطى وقدها بالنار ويطى فتورها وإخمادها.

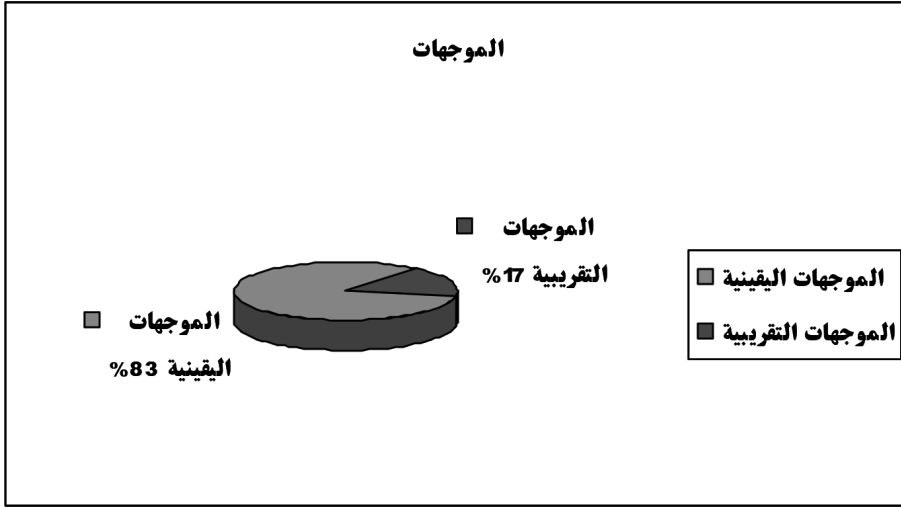
ففي هذه الفقرة ينجح المرسل حالة الاستقبال وما ينبثق عنها من مستجدات حال التواصل أهمية بالغة، «فيسعى إلى إطفاء عناصر التشويش التي قد تحدث بسبب كميّة المعلومات الجديدة وغرابتها بأساليب لغوية مضادّة.» (الخراعي، ٢٠١٧م: ٦٦)

النتيجة

١- إنّ هذه الرسالة تقوم على الطابع الحجاجي والإمام يحاول من خلالها تنفيذ أغراضه عبر الإقناع والتأثير؛ على سبيل المثال يعني الإمام بحروف الربط والعطف لتوجيه كلامه واستعان بها من أجل التأثير والإقناع والأشكال البيانية أى الاستعارة وغيرها. أمّا بالنسبة لإحصائيات موارد الاستعمال للروابط والعوامل الحجاجية، فرسم الرسم البياني لها كالآتي:



وفي دائرة الموجّهات الحجاجية يرسم الرّسم البياني لها كالآتي:



وكما يبدو أنّ الإمام يكثر من استخدام الموجهات اليقينية أكثر من الموجهات التقريبية ولاسيما القسم؛ حتى يثبت عدم حرصه على الدّنيا وانقياده إلى ملذّاتها ورغائبها وهو بوصفه هذا يريد أن يقنع المخاطب كي يحذّر من مغريات الدّنيا ومكائدها ووظّف المرسل أنواع القسم والتوكيدات، لأنه يحاول استثارة المتلقّي وتحريك كلّ قنواته التواصلية من أجل أن يستحکم كلامه في خلدّه وشدّد رباطه جأشه.

٢- في هذه الرّسالة أكثر المرسل من أساليب البيان ليبعد بأسلوبه عن التقريرية والمباشرة؛ مستغلاً طاقات هذه الأساليب للوصول إلى الإقناع والتأثير في المتلقّي ولذلك عدل بلفظ عن آخر للتعبير عن معانٍ ودلالات عميقة. وكذلك استخدم المرسل في هذه الرّسالة كثيراً من المفارقات التّحوية وينتهك النظام المعياري للملفوظات وهذه المفارقة تُرشدنا إلى المفارقة بين فعل المرسل الرّافض للدّنيا وبين فعل المخاطب المخالف لما أراد منه إمامه. وغرض الرّسالة هذه جاء من أجل المأموم ومن أجل بيان مخالفته لإمامه.

٣- أخذ المستوى الدّلالتي مساحته الرحبية في هذه الرّسالة من خلال التشبيهات التي كانت واضحة في صورها، قريبة من الدّهن وكذلك العلاقات التي تربط بين طرفي التشبيه ووجه الشبه قريب لا يحتاج في إدراكه إلى تأويل وتفكير وكذلك الإستعارة

التي لا نكاد نجد فيها صوراً صعبة تحتاج في فهمها إلى أعمال الذهن وكدها وكذلك الكناية. يعتمد المرسل في صورته التشبيهية على الهيئات المختلفة، ما يجعل المتلقى في رقابة دائمة مع النص من أجل اكتشاف الخيوط المشتركة بين هذه الصور. والكناية والتمثيل والتشبيه في هذه الرسالة لم تأتٍ للتزيين وترصيع الكلام فقط؛ بل ذريعة أساسية لتوجيه المخاطبين وحملهم على الإذعان والاعتراف.

المصادر والمراجع

نهج البلاغة.

ابن خراف، ابتسام. (٢٠١٠م). الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الامامة والسياسة) لابن قتيبة، دراسة تداولية. الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

ابن منظور، جمال الدين محمد. (١٤١٤ق). معجم لسان العرب. ط الثالثة. بيروت: دار صادر.
أبو عرقوب، إبراهيم. (٢٠٠٥م). الاتصال الاجتماعي ودوره في التفاعل الاجتماعي. عمان: مجدلاوى للنشر والتوزيع.

أرسطوطاليس. (١٩٧٩م). الخطابة. الترجمة العربية القديمة، تح. بدوى عبد الرحمن. بيروت: دار القلم.
الأسترآبادى، رضى الدين. (١٩٩٦م). شرح الكافية. ليبيا: منشورات قار تونس.

الأسدى، عادل. (٢٠٠٦م). من بلاغة الإمام على (ع) في نهج البلاغة. طهران: المحبين.
البحرانى، كمال الدين بن ميثم بن على. (١٩٩٢م). شرح نهج البلاغة. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

بلخير، هشام. (٢٠١٢م). آليات الإقناع في الخطاب القرآنى، دراسة حجاجية. مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير فى اللسانيات العامة (سورة الشعراء نموذجاً). الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

بروينى، خليل. (١٤٣٥م). «الصورة الفنية فى رسائل الإمام على (ع)» (دراسة فى ثلاث رسائل من نهج البلاغة نموذجاً). طهران: مجلة آفاق الحضارة الإسلامية. السنة السادسة عشرة. العدد الثانى.

صص ٤٨-٢٣

الجاحظ. (١٩٩٥م). البيان والتبيين. تح: عبدالسلام هارون. القاهرة: مطبعة الخانجى.

الجرجاني، عبدالقاهر. (١٩٩١م). دلائل الإعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر. رياض: دارالمدنى.
الحصرى، أبو إسحاق بن على. (١٩٨٦م). زهر الآداب وثمر الألباب. تح. محمد محى الدين عبد الحميد. بيروت: دار الجليل.

ديماس، محمد راشد. (١٩٩٩م). الحوار والإقناع. ط الأولى. بيروت: دار ابن حزم.

رزق، على. (١٩٩٤). نظريات فى أساليب الإقناع. بيروت: دارالصفوة.

- الزبيدي، جبار. (٢٠١٧م). رسائل الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة: دراسة حجاجية. ط الأولى. كربلا: مؤسسة علوم نهج البلاغة.
- سارة، قطاف. (٢٠١٥م). أدوات الإقناع البيانية في مقامات البشير الإبراهيمي. بحاية: جامعة عبدالرحمن ميرة.
- سعدون هنون، هادي. (٢٠١٢م). التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية. ط الأولى. النجف: إصدارات العتبة العلوية المقدسة.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين. (٢٠٠٦م). الاتقان في علوم القرآن. بيروت: المكتبة العصرية.
- شمال حسن، محمود. (٢٠٠٦م). الصورة والإقناع. القاهرة: دار الآفاق العربية.
- الشهري، عبدالمهادي بن ظافر. (٢٠٠٧م). استراتيجيات الخطاب، مقارنة تداولية. بيروت: دارالكتب الجديدة المتحدة.
- صفوت، أحمد زكي. (١٩٩٦م). جمهرة خطب العرب. بيروت: المكتبة العلمية.
- صولة، عبدالله. (٢٠٠٧م). الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية. ط الثانية. القاهرة: دار المعارف.
- العبد، محمد. (٢٠٠٥م). النصّ والخطاب والاتصال. القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب.
- الغزالي، أبو بكر. (٢٠١٠م). الخطاب والحجاج. بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة.
- القرطاجني، حازم. (١٩٦٦م). مناهج البلغاء وسراج الأدباء. تح: محمد الحبيب بن الخوجة. تونس: لانا.
- قصاب، وليد ابراهيم. (١٩٩٩م). البلاغة العربية - علم المعاني. دبي: دارالقلم.
- الكعبي، رائد حاكم. (٢٠١٥م). بلاغة الإقناع؛ قراءة حجاجية في خطب الإمام الحسين (ع). رسالة ماجستير. جامعة كربلاء.
- المبخوت، شكري. (٢٠١٠م). الاستدلال البلاغي. بيروت: دارالكتاب الجديدة المتحدة.
- المبخوت، شكري. (٢٠٠٩م). توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط. بيروت: دارالكتاب الجديدة المتحدة.
- المبرد. (١٩٨٨م). الكامل في اللغة والآداب. بيروت: مؤسسة المعارف.
- المتوكل، أحمد. (١٩٨٥م). الوظائف التداولية في اللغة العربية. الدار البيضاء: دارالثقافة.
- المرادي، أبو محمد. (١٩٩٢م). الجنى الداني في حروف المعاني. تحقيق فخرالدين قباوة ومحمد نديم فاضل. بيروت: دارالكتب العلمية.
- مفتاح، محمد. (١٩٩٠م). مجهول البيان. المغرب: الدار البيضاء.
- النقوي، محمدتقي. (١٣٨٣م). مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة. تهران: قائن.